القسم الثانى

فى نوادر معن بن زائدة

عفو معن بن زائدة عن أسراه

قيل: إن معن بن زائدة قبض على عدة من الأسرى فعرضهم على السيف، فالتفت إليه بعضهم وقال له: أصلح الله الأمير لا تجمع علينا بين الجوع والعطش ثم القتل فوالله إن كرم الأمير يبعد عن ذلك، فأمر لهم حينئذ بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم، فلما فرغوا من أكلهم قالوا لهُ: أيها الأمير أطال الله بقاءك إننا قد كنا أسراك والآن صرنا ضيوفك، فانظر كيف تصنع بضيوفك، فعند ذلك قال لهم معن: قد عفوت عنكم، فقال أحدهم والله أيها الأمير إن عندنا عفوك عنا أشرف من يوم ظفرك بنا، فسرَّ معنًا هذا الكلام وأمر لكلٍّ منهم بكسوة ومال.

* * *

كرم معن بن زائدة

حكى عن معن بن زائدة أن رجلاً قال لهُ: احملنى أيها الأمير، فأمر لهُ بناقة وفرس وبغلة وحمار، ثم قال لهُ لو علمت أن الله خلق مركوبًا غير هذا لحملتك عليهِ وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ورداء وجورب وكيس ولو علمنا لباسًا غير هذا من الخز لأعطيناك ثم أمر بإدخالهِ إلى الخزانة وصب تلك الخلع عليهِ.

* * *

إجارة معن لرجل استغاث به من المنصور

روى أن أمير المؤمنين المنصور أهدر دم رجل كان يسعى بفساد دولتهِ مع الخوارج من اهل الكوفة، وجعل لمن دل عليهِ أو جاء بهِ مائة ألف درهم ثم

إن الرجل ظهر فى بغداد، فبينما هو يمشى مختفيًا فى بعض نواحيها إذ بصر بهِ رجل من أهل الكوفة فأخذ بمجامع ثيابهِ وقال: هذا بغية أمير المؤمنين، فبينما الرجل على هذه الحالة إذ سمع وقع حوافر الخيل فالتفت فإذا معن بن زائدة، فاستغاث بهِ وقال لهُ: أجرنى أجارك الله، فالتفت معن إلى الرجل المتعلق به وقال لهُ: ما شأنك وهذا، فقال له: إنهُ بغية أمير المؤمنين الذى أهدر دمهُ وجعل لمن دل عليهِ مائة ألف درهم، فقال دعهُ وقال لغلامهِ انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها فصاح الرجل المتعلق وصرخ واستجار بالناس وقال: حال بينى وبين بغية أمير المؤمنين، فقال لهُ معن اذهب فقل لأمير المؤمنين وأخبره أنهُ عندى، فانطلق الرجل إلى المنصور فأخبره، فأمر المنصور بإحضار معن فى الساعة، فلما وصل أمر المنصور إلى معن دعا جميع أهل بيتهِ ومواليهِ وأولاده وأقاربه وحاشيته وجميع من يلوذ بهِ وقال لهم: أقسم عليكم بأن لا يصل إلى هذا الرجل مكروه أبدًا وفيكم عين تطرف، ثم إنهُ سار إلى المنصور فدخل وسلم عليهِ فلم يرد عليهِ المنصور السلام، ثم إن المنصور قال له: يا معن أتتجرأ علىَّ، قال نعم يا أمير المؤمنين، فقال ونعم أيضًا وقد اشتد غضبهُ، فقال معن يا أمير المؤمنين كم من مرة تقدم فى دولتكم بلائى وحسن عنائى، وكم من مرة خاطرت بدمى أفما رأيتم أهلاً بأن يوهب لى رجل واحد استجار بى بين الناس بوهمهِ أنه عبد من عبيد أمير المؤمنين وكذلك هو فمر بما شئت ها أنا بين يديك، فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسهُ وقد سكن ما بهِ من الغضب وقال له: قد أجرناكهُ يا معن، فقال لهُ معن إذ أى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين فيامر له بصلة فيكون قد أحياه وأغناه، فقال المنصور. قد أمرنا لهُ بخمسين ألف درهم، فقال لهُ معن: إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فأجذل صلتهُ، قال قد أمرنا لهُ بمائة ألف درهم، فقال لهُ معن عجل بها يا أمير المؤمنين فإن خير البر عاجلهُ، فأمر لهُ بتعجيلها، فحملها وانصرف وأتى منزلهُ وقال للرجل: يا رجل خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالفة الخلفاء فى أمورهم بعد هذه.

جود معن بن زائدة

حكى عن معن بن زائدة أن شاعرًا من الشعراء قصده فأقام مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ لهُ ذلك، فلما أعياه الأمر سأل بعض خدمه وقال لهُ: أرجوك إذا دخل الأمير إلى البستان أن تعرفنى، فلما دخل معن إلى بستانه ليتنزه جاء الخادم وأخبر الشاعر، فكتب الشاعر بيتًا من الشعر على خشبة وألقاها فى الماء الجارى إلى البستان، فاتفق أن معنًا كان جالسًا فى ذلك الوقت على جانب الماء فمرت عليه الخشبة فنظر فيها كتابة فأخذها وقرأها فوجد فيها:

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتى فما لى إلى معنٍ سواك سبيلُ

فلما قرأها معن قال لخادمه: أحضر الرجل صاحب هذه الكتابة، فخرج وجاءَ به فقال لهُ: ماذا كتبت، فأنشده البيت، فلما تحققهُ أمر لهُ بألف درهم، ثم إن معنًا وضع تلك الخشبة تحت البساط مكان جلوسه، فلما كان اليوم الثانى جاءَ فجلس فى مجلسه فآلمتهُ الخشبة فقام لينظر ما آلمهُ فرأى الخشبة فأمر خادمهُ أن يدعو الرجل فمضى وجاء به فأمر له بألف درهم ثانية، ثم إنهُ فى اليوم الثالث خرج إلى مجلسه فآلمتهُ الخشبة فدعا الشاعر وأعطاه ألف درهم أيضًا، فلما رأى الشاعر هذا العطاء الزائد لأجل بيت واحد من الشعر خاف أن معنًا يراجعهُ عقلهُ ويأخذ المال منهُ فهرب، ثم إن معنًا خرج إلى مجلسه فى اليوم الرابع فآلمتهُ الخشبة فخطر الشاعر بباله فأمر خادمهُ أن يحضره ويعطيَهُ ألف درهم، فمضى الخادم وسأل عنهُ فقيل لَهُ إنهُ سافر فرجع وأخبر مولاه، فلما بلغهُ أنهُ سافر اغتم جدًا وقال: وددت والله لو أنهُ مكث وأعطيته كل يوم ألفًا حتى لا يبقى فى بيتى درهم.

* * *

الأعرابى ومعن بن زائدة

كان معن بن زائدة أميراً على العراق وكان لهُ فى الكرم اليد البيضاء وهو من الحلم على أعظم جانب، فقدم إليهِ أعرابى ذات يوم يمتحن حلمه، فلما وقف قال:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير

قال معن: أذكر ذلك ولا أنساه، فقال الأعرابى:

فسبحان الذى أعطاك ملكًا وعلمك الجلوس على السرير

قال معن: سبحانه على كل حال. فقال الأعرابى:

فلست مسلمًا إن عشت دهراً على معنٍ بتسليم الأمير

قال معن: يا أخا العرب السلام سنة تأتى بها كيف شئت، فقال الأعرابى:

سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير

قال معن: يا أخا العرب إن جاورتنا فمرحبًا بك وإن رحلت مصحوب بالسلام.

فقال الأعرابى:

فجد لى يا ابن ناقصة بشيءٍ فإنى قد عزمت على المسير

قال معن: أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره، فأخذها وقال:

قليل ما أتيت بهِ وإنى لأطمع منك بالمال الكثير

قال معن: أعطوه ألفًا آخر، فأخذها الأعرابى وقبل الأرض بين يدى الأمير وقال:

سألت الله أن يبقيك ذخراً فما لك فى البرية من نظير

فقال: من قد أعطيناه على هجائنا ألفى درهم فأعطوه على مديحنا أربعة آلاف، فأخذ الأعرابى المال وانصرف شاكراً لهُ ومعجبًا بحلمهِ العظيم.

* * *

معن وبعض أهل الكوفة

لما ولى المنصور معن بن زائدة آذربيجان قصده قوم من أهل الكوفة فلما صاروا ببابه واستأذنوا عليه دخل الآذن فقال: أصلح الله الأمير بالباب وفدٌ من أهل العراق، قال من أى العراق؟ قال من الكوفة، قال ائذن لهم، فدخلوا عليه، فنظر إليهم معن فى هيئة ذرية وهو على أريكته فأنشد يقول:

إذا نوبةٌ نابت صديقك فاغتنم ... سمرتها فالدهر بالناس قلبُ
فأحسن ثوبيك الذى هو لابس ... وأفره مهريك الذى هو يركبُ
وبادر بمعروف إذا كنت قادراً ... زوال اقتدار أو غنى عنك يعقبُ

فوثب إليه رجلٌ من القوم فقال: أصلح الله الأمير ألا أنشدك أحسن من هذا قال لمن، قال لابن عمك ابن هرمة، قال هات فأنشد:

وللنفس تاراتٌ بها تبخل العدى ... وتسخو عن المال النفوس الشحائحُ
إذا المرءُ لم ينفعك حيًا فنفعهُ ... أقلُّ إذا ضمت عليهِ الصفائح
لأية حالٍ يمنع المرءُ مالهُ ... غدا فعدا والموت غادٍ ورائح

فقال معن: أحسنت وإن كان الشعر لغيرك يا غلام أعطهم أربعة آلاف يستعينون بها على أمورهم إلى أن يتهيأ لنا فيهم ما نريد فقال الغلام يا سيدى اجعلها دنانير أو دراهم، فقال معن والله لا تكون همتك أعلى من همتى صفّرها لهم.

* * *

معن ومروان بن أبى حفصة

لما قدم معن بن زائدة بغداد أتاه الناس وأتاه مروان بن أبى حفصة، فإذا المجلس غاص بأهلهِ فأخذ بمصراع فى الباب وقال:

وما أحجم الأعداءُ عنك تقية ... عليك ولكن لم يروا فيك مطمعًا
لهُ راحتان الجود والحتف فيهما ... أبى الله إلا أن تضرّ وتنفعا

فقال معن احتكم يا أبا سمط، فقال عشرة آلاف درهم، قال معن يجب عليك أن تطلب تسعين ألفًا.

* * *

ذكر ما قاله الحسين فى معن بن زائدة

خرج المهدى يومًا يتصيد فلقيهُ الحسين بن مطير فأنشد:

أضحت يمينك من جود مصورة
لكن يمينك منها صورة الجودِ
من حسن وجهك تضحى الأرض مشرقة
ومن بنانك يجرى الماء فى العودِ

فقال المهدى: كذبت يا فاسق وهل تركت فى شعرٍ موضعًا لأحد مع قولك فى معن بن زائدة:

ألما بمعن ثم قولا لقبره
سقتك الفؤَاد مربعًا ثم مربعا
فيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض حطت للمكارم مضجعا
أيا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منهُ البر والبحر مترعا
ولكن حويت الجود والجود ميت
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
وما كان إلا الجود صور وجههُ
فعاش ربيعًا ثم ولى مودعا
فلما مضى معن مضى الجود والندى
وأصبح عرنين المكارم أجدعا

فأطرق الحسين ثم قال يا أمير المؤمنين وهل معن إلا حسنة من حسناتك فرضى عنه وأمر له بألفى دينار.

معن وبعض فصحاء العرب

دخل بعض فصحاء العرب على معن فقال: أصلح الله الأمير لو شئت أن أتوسل إليك ببعض من يثقل عليك لوجدت ذلك سهلاً عليك ولكن استشفعت بقدرك واستعنت عليك بفضلك فإن أردت أن تضعنى من كرمك حيث وضعت نفسى من رحلك فإنى لم أكرم نفسى عن مسألتك فأكرم وجهك عن ردّى فقال سل حاجتك قال ألف درهم قال ربحت عليك ربحًا مبينًا، قال مثلك لا يربح على سائلِه، قال أضعفوا لهُ ما سأل.

* * *

معن بن زائدة والثلاث جوارٍ

كان معن بن زائدة يومًا فى الصيد فعطش فلم يجد مع غلمانه ماءً، فبينما هو كذلك وإذا ثلاث جوارٍ قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينهُ، فطلب شيئًا من المال مع غلمانهِ فلم يجده، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانتهِ نصولها من ذهب، فقالت إحداهن: ولكن لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة، فلتقل كل واحدة منكن شيئًا من الأبيات فقالت الأولى:

يركب فى السهام نصول تبرٍ ... ويرمى للعدا كرمًا وجودًا
فللمرضى علاجٌ من جراح ... وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية:

ومحارب من فرط جود بنانه ... عمت مكارمهُ الأقارب والعدى
صيغت فصول سهامهِ من عسجدٍ ... كى لا يفوتهُ التقارب والندا

وقالت الثالثة:

ومن جوده يرمى العداة بأسهم ... من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعهِ ... ويشترى الأكفان منها قتيلها

* * *

معن وأحد العامة

خرج معن بن زائدة يومًا فى جماعة إلى الصيد، فقرب منهم قطيع ظباء فافترقوا فى طلبه وانفرد معن خلف ظبى، فلما ظفر به نزل فذبحهُ فرأى شخصًا مقبلاً من البرية على حمار فركب فرسهُ واستقبلهُ فسلم عليه وقال لهُ: من أين أتيت؟ قال لهُ أتيت من أرض قضاعة وإن لها مدة من السنين مجدبة وقد أخصبت فى هذه السنة فزرعت فيها قثاء وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور، ومعروفه المأثور فقال لهُ: كم أملت منهُ؟ قال ألف دينار، قال لهُ إن قال لك هذا القدر كثير، فقال: خمسمائة دينار، قال فإن قال لك كثير، قال ثلاثمائة دينار، قال فإن قال لك كثير، قال مائتا دينار، قال فإن قال لك كثير، قال مائة دينار، قال فإن قال لك كثير، قال خمسين دينارًا، قال فإن قال لك كثير، قال ثلاثين دينارًا، قال فإن قال لك كثير، قال: أدخلت قوائم حمارى فى فكه وأرجع إلى أهلى خائبًا صفر اليدين، فضحك معن منهُ وساق جواده حتى لحق بعسكره ونزل فى منزله وقال لحاجبه، إذا أتاك شخص على حمار بقثاء، فأدخلهُ علىّ، فأتى ذلك الرجل بعد ساعة فأذن له الحاجب فى الدخول، فلما دخل على الأمير معن لم يعرف أنهُ هو الذى قابلهُ فى البرية لهيبته وجلالته وكثرة خدمه وحشمه وهو متصدر فى دست مملكته والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال لهُ الأمير: ما الذى أتى بك يا أخا العرب، قال أملت الأمير وأتيت لهُ بقثاء فى غير أوانها، فقال لهُ: وكم أملت منا، قال ألف دينار، قال هذا القدر كثير، قال خمسمائة دينار قال كثير، قال ثلاثمائة دينار، قال كثير، قال مائتا دينار، قال كثير، قال مائة دينار، قال: كثير، قال خمسين دينارًا، قال كثير، قال ثلاثين دينارًا قال كثير، قال والله لقد كان ذاك الرجل الذى قابلنى فى البرية مشؤومًا، أفلا أقل من ثلاثين دينارًا، فضحك معن وسكت فعلم الأعرابى أن هذا الرجل الذى قابلهُ فى البرية فقال لهُ: يا سيدى إذا لم تجئ بالثلاثين دينارًا فها هو الحمار مربوط بالباب وها معن جالس، فضحك معن

حتى استلقى على قفاه، ثم استدعى وكيلهُ وقال لهُ: أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائتى دينار وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً ودع الحمار مربوطًا مكانهُ، فبهت الأعرابى وتسلم الألفين ومائة دينار وثمانين ديناراً.

* * *

قيل فى معن بن زائدة

يقولـون معن لا زكاة لمالهِ ... وكيـف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم يكن فى دياره ... من المـال إلاَّ ذكرهُ وجمـائله
تراه إذا مـا جئتـهُ متهـللاً ... كأنـك تعطيـه الذى أنت سائله
تعـوَّد بسط الكـف حتى لو أنهُ ... أراد انقبـاضًا لم تطعهُ أنامله
فلو لم يكن فى كفهِ غير نفسهِ ... لجـاد بهـا فليتق الله سـائله

* * *

لمروان بن أبى حفصة يرثى بها معن بن زائدة

مضـى لسبيـله معـن وأبـقى ... مكـارم لن تبيـد ولن تنالا
كـأن الشمس يوم أصيـب معن ... من الإظلال ملبسـة ظـلالا
هو الجبل الذى كـانت نزارٌ ... تهـدُّ من العـدوّ بهِ الجبـالا
وعطلت الثغور لفقـد معن ... وقد يروى بهـا الأسلَ النهـالا
وأظلمـت العراق وأورثتهـا ... مصيبتـهُ المجـللة اعتـلالا
وظل الشام يرجف جانبـاه ... لركـن العزّ حيـن وهى فمـالا
وكـادت من تهامـة كل أرض ... ومن نجـد تزول غـداة زالا
فإن يعلو البلاد له خشـوع ... فقـد كانت تطول بهِ اختيالا
أصاب الموت يوم أصـاب معنًا ... مـن الإحيـاء أكرمهم فعالا
كـأن النـاس كلهم بمعـن ... إلى أن زار حفـرتهُ عيـالا
ولم يك طالـب للعـرف ينـوى ... إلى غير ابن زائدة ارتحـالا

مضى من كان يحمل كل عبءٍ ... ويسبق فضل نائله السؤالا
وما عمد الوفود لمثل معن ... ولا حطوا بساحته الرحالا
ولا بلغت أكف ذوى العطايا ... يمينًا من يديه ولا شمالا
وما كانت تجف له حياض ... من المعروف مترعة سجالا
فليت الشامتين به فداوه ... وليت العمر مد لهُ فطالا
ولم يك كنزه ذهبًا ولكن ... سيوف الهند والسمر الصقالا
وذخرًا فى محامد باقيات ... وفضل تقًى بهِ التفضيل نالا
مضى لسبيلهِ من كنت ترجى ... بهِ عثرات دهرك أن تقالا
فلست بمالك عبرات عين ... أبت بدموعها إلاَّ انهمالا
فلهف أبى عليك إذ اليتامى ... غدوا شعثًا وقد أضحوا سلالا
ولهف أبى عليك إذ القوافى ... لمتدح بها ذهبت ضلالا
أقمنا باليمامة إذ يثسنا ... مقامًا لا نريد لها نزالا
وقلن أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا
سيذكرك الخليفة غير قالٍ ... إذا هو فى الأمور بلا الرجالا
ولا ينسى وقائعك اللواتى ... على أعدائه جعلت وبالا
حباك أخو أمية بالمراثى ... مع المدح الذى قد كان قالا
وألقى رحلهُ أسفًا وآلى ... يمينًا لا يشد لهُ حبالا

* * *